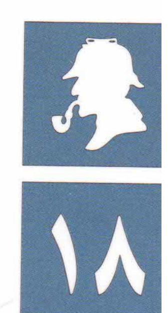
النص الكامل



مغامرات شيرلوك هولمز



تأليف:
آرثر كونان دويل



وصيّة عائلة موسْغريف



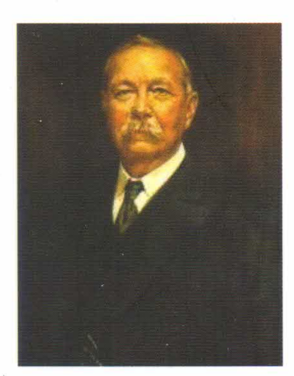


للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

سومات الأصلية







مغامرات

شيرلوك هولمز

تأليف: آرثر كونان دويل

The Adventures of Sherlock Holmes



The Adventure of the Musgrave Ritual

US $ 1.35

سعر البيع ٥ ريالات





ISBN 2-1957-3369-4






بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات

شيرلوك هولمز

(٦)

وصيّة عائلة موسْغريف

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد أيار (مايو) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوِير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.





شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.





قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».





رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

وصيّة
عائلة موسْغريف



أذهلتني دائماً صفة غريبة في شخصية صديقي شيرلوك هولمز؛ فبالرغم من أنه من أكثر الناس ترتيباً ومنهجية في أساليب تفكيره، كما أنه يميل إلى الأناقة في ثيابه المحافظة، إلا أنه كان -مع ذلك- واحداً من أشد الناس فوضى في العادات الشخصية ومن الذين يدفعون زملاءهم في السكن إلى الجنون! لا أعني بذلك أنني من المتمسكين بقواعد السلوك والنظام، فقد صرت أنا نفسي أمْيَل إلى التساهل بعد العمل الشاقّ الذي خبرته والحياة الفوضوية التي عشتها في أثناء الحملة العسكرية في أفغانستان. فرجل الطب الذي يضع لفائفه في سطل الفحم ويحشو أغراضه في خُفّ فارسي ويثبّت مراسلاته غير المجاب عنها بمطواة على رف المدفأة لا يمكنه أن يحرص -بعد ذلك- على المظاهر الكاذبة.

وأيضاً كنت أدرك دائماً أن ممارسة الرماية بالمسدّس يجب أن تكون تسلية في الهواء الطلق بلا شك، ولذلك فقد استغربت كثيراً عندما جلس هولمز على المقعد ذي الذراعين وهو في إحدى

نزواته الغريبة ويده على زناد البندقية مع مئة خرطوش ثم بدأ بتزيين الجدار بالرمز الوطني بواسطة بثرات من الرصاص!

كان مسكننا ممتلئاً دائماً بالكيماويات وآثار المجرمين التي ينتهي بها المطاف إلى أماكن غير مناسبة، كأن تظهر في طبق الزبدة مثلاً! ولكن كانت أوراقه هي مشكلتي الكبرى؛ فقد كان يخاف من تدمير أي مستنَد، ولا سيما تلك التي ارتبطت بإحدى قضاياه السابقة. وبالرغم من ذلك لم يكن يستجمع طاقته ليقوم بجدولة هذه الأوراق وتنظيمها إلا مرة كل عام أو عامين؛ فكما ذكرت -في مكان ما من هذه المذكّرات المتفرقة- فإن تفجُّر الطاقة الذي يصاحب إنجازه للأعمال الرائعة التي يرتبط بها اسمه تتبعه حالة من الخمود، يرقد خلالها ومعه كمانه وكتبه بلا حركة تقريباً إلا من الأريكة إلى الطاولة! لذلك تراكمت أوراقه شهراً بعد شهر حتى تكدّست في كل زاوية من زوايا الغرفة في رُزَم من المخطوطات التي لا يمكن حرقها لأي سبب ولا يمكن تصنيفها إلا بواسطة مالكها.

وفي إحدى ليالي الشتاء ونحن جالسان بجوار

النار خاطرت فاقترحت عليه أن يقوم بتوظيف الساعتين المقبلتين في جعل غرفتنا أكثر صلاحية للمعيشة. ولم يستطع إنكار عدالة مطلبي، فذهب إلى غرفته بوجه حزين إلى حد ما، ثم عاد وهو يسحب خلفه صندوقاً كبيراً فوضعه في وسط الغرفة، ثم جلس على مقعد أمامه وفتح الغطاء، فرأيت أنه شبه ممتلئ بحُزَم من الورق مربوطة بأشرطة حمراء ومقسَّمة إلى رُزَم منفصلة.

نظر إليّ بعينين خبيثتين وقال: هنا من القضايا ما يكفي يا واطسون، وأعتقد أنك لو عرفت كل ما يوجَد في هذا الصندوق ستطلب مني إخراج بعضها بدلاً من وضع بعض القضايا الأخرى في الصندوق.

سألته قائلاً: أهذه هي سجلاّت أعمالك الأولى إذن؟ لقد تمنيت دائماً أن أحصل على ملاحظات عن هذه القضايا.

- نعم يا ولدي، فكل هذه القضايا كانت قبل أن يأتي كاتب سيرتي ليمجّدني.

رفع حزمة بعد أخرى بطريقة فيها نوع من الرقّة والمداعبة ثم قال: ليست كلها ناجحة يا واطسون، ولكن توجَد بعض المشكلات الصغيرة التي تتطلب

البراعة بين تلك القضايا. ها هو تسجيل لقضيّة جرائم قتل عائلة تارلتون، ومغامرة المرأة الروسية العجوز، والقضية الرائعة لعكّاز الألمنيوم، وهنا... آه، نعم؛ هذا الشيء نادر حقاً.

دفع يده إلى قاع الصندوق فسحب منه علبة خشبية صغيرة ذات غطاء منزلق كتلك التي تُحفَظ فيها ألعاب الأطفال، وأخرج من داخلها ورقة مجعَّدة، ومفتاحاً نحاسياً قديم الطراز، وخشبة لُفَّ عليها حبل طويل، وثلاث عملات معدنية قديمة صدئة!

ثم سألني وهو يبتسم لتعابير وجهي: حسناً، ماذا تفهم من هذه الأشياء؟

- إنها مجموعة غريبة.

- غريبة جداً، وسيذهلك أن القصة التي تحيط بها أكثر غرابة.

- ألهذه الآثار تاريخ إذن؟

- إلى حد كبير، لدرجة أنها هي التاريخ.

- ماذا تعني بذلك؟!

التقط هولمز محتويات العلبة الواحد بعد الآخر فوضعها على الطاولة، ثم عاد إلى الجلوس في مقعده وتفحّصها بلمعة من الرضا في عينيه وقال: هذه الأشياء هي كل ما بقي ليذكّرني بمغامرة «وصيّة عائلة موسغريف».



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

كنت قد سمعته يذكر هذه القضية أكثر من مرة لكني بقيت جاهلاً بتفصيلاتها، فقلت: سأكون مسروراً جداً لو قصصت عليّ هذه القضية.

صاح بخبث: وأتركُ الفوضى كما هي؟ لن يتحمّل حبك للترتيبِ ضغطاً أكثر من ذلك يا واطسون، ولكنني سأُسَرّ إذا أضفتَ هذه القضية إلى سجلاتك لأن فيها من النقاط ما يجعلها فريدة في سجلات الجريمة، وسوف تكون مجموعة إنجازاتي الصغيرة ناقصة إذا لم تحتوِ على وصف لهذه القضيّة الرائعة بالذات.

لعلك تتذكر كيف أن قضية السفينة غلوريا سكوت ومحادثتي مع الرجل التعِس الذي أخبرتك عن مصيره قد وجّها انتباهي في البداية إلى المهنة التي صارت عمل حياتي، فأنت تعرفني الآن بعدما أصبح اسمي معروفاً طولاً وعرضاً وأصبح العامّة ورجال الشرطة ينظرون إليّ كملجأ أخير في القضايا المحيّرة، ولذلك فمن الصعب أن تدرك مدى الصعوبة التي واجهتُها في البداية وكم من الوقت انتظرت حتى نجحت في إحراز التقدم.

عندما جئت إلى لندن في أول الأمر سكنت

في شارع مونتاغو بالقرب من المتحف البريطاني، وهناك رحت أملأ وقت فراغي الطويل بدراسة فروع العلم التي تجعلني أكثر كفاءة. وجاءتني القضايا متفرقة من حين إلى آخر، وقد جاء أكثرها من زملاء الدراسة القدماء؛ ذلك لأن الحديث كان قد كَثُرَ عني وعن أساليبي خلال عامي الأخير في الجامعة. وكانت ثالثة هذه القضايا هي قضيّة وصية عائلة موسغريف، وقد كان الاهتمام الكبير الذي أثارته هذه السلسلة من الأحداث البالغة الأهمية هو الخطوة الأولى التي ساهمت في دفعي إلى المركز الذي أنا فيه الآن.

كان ريجنالد موسغريف طالباً في الكلّية ذاتها التي كنت طالباً فيها في الجامعة، وكنت أعرفه معرفة سطحية، فهو لم يكن ذا شعبية بين طلاب الجامعة، بالرغم من أنني أحسست دائماً أن ما اعتبروه غروراً فيه كان في الحقيقة محاولة منه لإخفاء حياء شديد في طبيعته. كان مظهره يدلّ على رجل من النوع الشديد الأرستقراطية، فقد كان نحيلاً ذا أنف مرتفع وعينين واسعتين، وكانت تصرّفاته واهنة ولكنها منمَّقة. كان حقاً سليل إحدى أعرق العائلات في بريطانيا، وإن كان من الفرع الذي انفصل عن عائلة موسغريف في الشمال في وقت ما من القرن السادس عشر

واستقرّ في غرب سَسِكس، حيث يمكن أن يكون قصر هورلستون هناك هو أقدم مسكن مأهول في تلك المقاطعة. وقد بدا ريجنالد موسغريف دائماً وكأن أصله يهيمن عليه، فلم أنظر قط إلى وجهه النحيل الحادّ وشموخ رأسه إلا وقرنته بالقناطر الرمادية والنوافذ ذات الأعمدة والأطلال المَهيبة للقلاع الإقطاعية! تحدثنا مرة أو مرتين، وأتذكر أنه قد عبّر عن اهتمامه الشديد بأساليبي في الملاحظة والاستنتاج.

ثم لم أرَه لمدة أربع سنوات حتى زارني ذات صباح في مسكني بشارع مونتاغو، ولم يكن قد تغيّر إلا قليلاً، فكان يرتدي ملابسه متماشياً مع طُرُز الشباب حيث كان دائماً شديد التأنّق، كما حافظ على نفس سلوكه الهادئ الرقيق الذي كان يميّزه سابقاً.

سألته بعد أن صافحته بحرارة: كيف جرت الأمور معك يا موسغريف؟

قال: من المحتمَل أن تكون قد سمعت بوفاة والدي المسكين. لقد توُفّي منذ عامين فقمت بإدارة ممتلكات هورلستون، وبما أنني أيضاً عضو في

البرلمان عن مقاطعتي فإن حياتي مليئة بالنشاط. وقد فهمت -يا هولمز- أنك حوّلت قدراتك التي أذهلتَنا بها دائماً إلى أغراض عملية؟

قلت: أجل، لقد اتخذت من مقدرتي العقلية سبيلاً لكسب معيشتي.

- أنا سعيد بسماع ذلك لأن نصيحتك في الوقت الحالي ستكون قيّمة جداً بالنسبة لي، فقد وقعت في



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

هورلستون أحداث غريبة جداً، ولم يستطع الشرطة إيضاح الأمر، وهو بالفعل أمر غريب وغير قابل للتفسير.

يمكنك أن تتخيل مدى لهفتي وأنا أستمع إليه يا واطسون، فالفرصة التي كنت ألهث وراءها طوال كل تلك الشهور من البطالة صارت في متناول يدي، ففي أعماق قلبي كنت أؤمن بأنني أستطيع النجاح حيث فشل الآخرون، وقد سنحت لي الآن الفرصة لأختبر نفسي.

قلت: بربّك أخبرني بالتفصيلات.

جلس موسغريف أمامي وقال: يجب أن تعرف أولاً أن عليّ الاحتفاظ بعدد كبير من الخدم في هورلستون بالرغم من أنني أعزب؛ فهو قصر قديم مترامي الأطراف ولذلك فإنه يحتاج إلى الكثير من العناية، كما أنني أستقبل فيه بعض الضيوف للإقامة أحياناً، ولذلك لا يمكن السماح بنقص في العمالة؛ وهكذا فإن لدينا ثماني خادمات وكبير خدم وطبّاخاً واثنين من البوّابين، أما الحديقة والإسطبلات فلها طاقم منفصل بالطبع.

الأقدم بين هؤلاء جميعاً هو كبير الخدم

برونتون، وقد كان مديرَ مدرسة يافعاً في المكان غير الملائم حين وظّفه أبي، ولكنه كان ذا طاقة كبيرة وشخصية عظيمة، وسرعان ما صار ذا قيمة لا تقدَّر بالنسبة إلى سكان المنزل. وهو وسيم ذو بنية قوية وجبهة كبيرة، وبالرغم من أنه معنا منذ عشرين عاماً إلا أن عمره لا يمكن أن يزيد عن أربعين عاماً، فبقي راضياً بوظيفته حتى الآن بالرغم من مزاياه الشخصية ومواهبه الغير العادية؛ فهو يتحدث بعدّة لغات ويعزف على كل الآلات الموسيقية تقريباً، وظنّي أنه قد استرخى وفقَدَ الطاقة اللازمة ليقوم بأي تغيير؛ وهكذا صار كبير الخدم في هولستون من الأشياء التي يتذكرها كل من يزورنا.

كان برونتون متزوجاً ولكنه ترمّل منذ نحو سنة، وقد راودنا الأمل منذ شهور قليلة بأنه سوف يستقرّ من جديد بعد أن خطب راشل هاولز خادمة المنزل الثانية، ولكنه لم يلبث أن تخلّى عنها واتجه إلى جانيت تريغليس ابنة رئيس حرّاس الصيد.

راشل فتاة ممتازة ولكنها سريعة الانفعال، وقد أصابتها نوبة حادّة من حُمّى الدماغ فراحت تهيم في المنزل (أو كانت كذلك حتى الأمس) مثل ظلّ بائس لِما كانت عليه من قبل. كانت تلك هي الدراما

الأولى التي وقعت في هورلستون، ثم جاءت الثانية لتبعدها عن أذهاننا، وقد بدأت بحادثة طرد رئيس الخدم برونتون.

قلت لك إن الرجل كان ذكياً، وذكاؤه هذا بالذات هو الذي قضى عليه؛ حيث يبدو أن فضوله قد قاده إلى العبث بأشياء لا تعنيه بأي حال، وقد كانت مصادفة بسيطة وراء اكتشاف فضوله هذا. ففي أحد أيام الأسبوع الماضي، وعلى وجه الدقة ليلة الخميس، وجدت أنني لا أستطيع النوم لأنني -بحماقة- كنت قد شربت كوباً من القهوة المركَّزة السوداء بعد العشاء، وبعد مقاومة الأرق حتى الثانية صباحاً شعرت باليأس، فنهضت وأشعلت شمعة وأنا أنوى إنهاء رواية كنت قد بدأت قراءتها، ولكنني كنت قد تركتها في غرفة البلياردو، فارتديت ردائي المنزلي وذهبت لإحضارها.

كان عليّ أن أرتقي عدداً من الدرجات حتى أصل إلى غرفة البلياردو ثم أعبر الممر الذي يقود إلى غرفة المكتبة وغرفة البنادق، ولك أن تتخيل دهشتي عندما نظرت عبر الممر لأجد شعاع ضوء ظاهراً من باب المكتبة المفتوح، وكنت قد أطفأت المصباح بنفسي وأغلقت الباب قبل الذهاب للنوم!

كانت أول فكرة خطرت على بالي بطبيعة الحال هي وجود لصوص، وبما أن جدران الممرات في هورلستون مزيَّنة بتذكارات من الأسلحة القديمة فقد التقطت واحداً من فؤوس الحرب وتركت شمعتي ورائي وتسللت على أطراف أصابعي عبر الممر، ثم اختلست النظر من خلال الباب المفتوح.

كان كبير الخدم برونتون جالساً على كرسي



رسم و هـ هايد ١٨٩٣ W. H. Hyde 1893

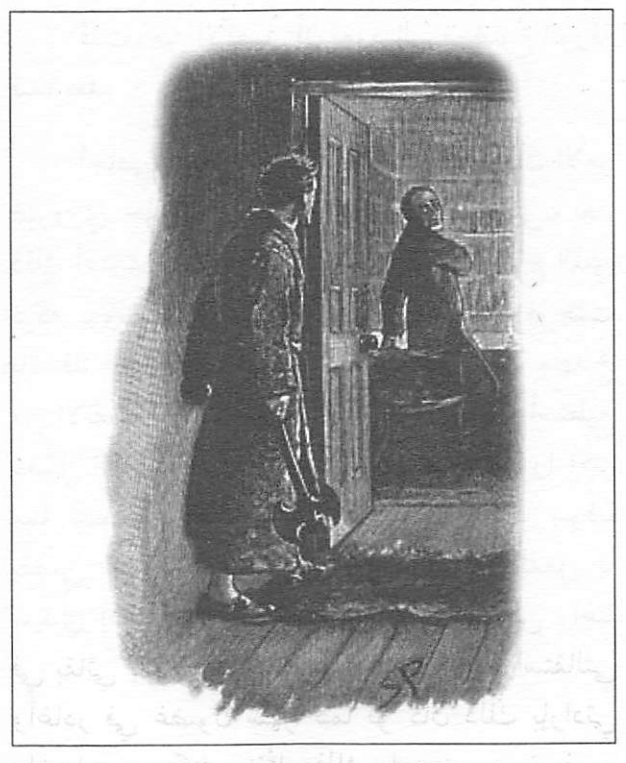
مريح في المكتبة وعلى ركبتيه قطعة من الورق تشبه الخريطة وهو منحنٍ إلى الأمام يسند جبهته على يده في تفكير عميق. جمّدتني المفاجأة فوقفت أراقبه في الظلام، وكان الضوء الضعيف من شمعة صغيرة على حافّة الطاولة كافياً ليظهر لي أنه كان مرتدياً ملابسه كاملة. وفجأة بينما كنت أراقبه وقف واتجه إلى المكتب على الجانب وفتح القفل، ثم سحب أحد الأدراج فأخرج منه ورقة، وبعد ذلك عاد إلى كرسيه وبسطها بجوار الشمعة على حافّة الطاولة وبدأ يدرسها باهتمام. تغلب عليّ امتعاضي حين رأيته يفحص وثائقنا العائلية فأخذت خطوة إلى الأمام، فرفع برونتون نظره إلى الأعلى ورآني واقفاً في المدخل، فقفز واقفاً وقد شحب وجهه من الخوف، ثم دفع الورقة التي تشبه الخريطة والتي كان يدرسها في البداية إلى جيبه.

قلت: أهكذا تردّ على الثقة التي وضعناها فيك؟ ستترك خدمتي في الغد.

انحنى وقد بدا كرجل محطَّم تماماً وانسلّ من جانبي دون أن ينطق بكلمة.

كانت الشمعة ما تزال مشتعلة، فألقيت نظرة

سريعة لأرى ما هي الورقة التي أخذها برونتون من المكتب، ولدهشتي وجدت أنها ليست لها أي أهمية على الإطلاق؛ كانت -ببساطة- نسخة من قائمة الأسئلة والأجوبة التي تقوم عليها وثيقة قديمة غريبة نسمّيها «وصية عائلة موسغريف»، وهي نوع من



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

الطقوس الخاصة بعائلتنا مضت عليها عدة قرون، ويطّلع عليها كل فرد من عائلة موسغريف حين يبلغ العمر المناسب. ولكنها ذات أهمية خاصة لنا فقط، وربما كانت على شيء من الأهمية بالنسبة إلى عالِم آثار، أما غير ذلك فليست لها أية فائدة عملية.

قلت: من الأفضل أن نعود إلى موضوع الورقة فيما بعد.

أجابني ببعض التردّد: إذا كنت تظن أن الأمر ضروري حقاً. على أية حال سأكمل روايتي: بعد ذلك أعدت إغلاق المكتب مستخدماً المفتاح الذي تركه برونتون، وعندما استدرت لأغادر فوجئت بأنه قد عاد فوقف أمامي، ثم صاح بصوت متهدج من الانفعال: سيد موسغريف، سيدي، لن أستطيع تحمُّل العار يا سيدي؛ لقد كنت دائماً فخوراً أكثر مما تسمح به مكانتي في الحياة، والطرد سوف يقضي عليّ، سيكون دمي في رقبتك بالفعل يا سيدي إذا دفعتني إلى اليأس، فإذا لم تكن راغباً في بقائي بعدما حدث فبربّك دعني أقدّم استقالتي وأغادر في غضون شهر كما لو كان ذلك بإرادتي واختياري. يمكنني تقبُّل ذلك يا سيد موسغريف،

ولكنني لن أتحمل الطرد أمام كل من أعرفهم من الناس.

أجبته قائلاً: أنت لا تستحقّ أي مراعاة لمشاعرك يا برونتون؛ إن فعلتك شائنة جداً. على أية حال، وبما أنك تخدم العائلة منذ وقت طويل، فلست أرغب في أن أُلحِق بك العار علناً، ولكن الشهر مدة طويلة جداً. اذهب خلال أسبوع ويمكنك أن تقول ما تريد عن أسباب ذهابك.

صاح بصوت يائس: أسبوع فقط يا سيدي! فليكونا أسبوعين على الأقل.

كررت عليه قائلاً: أسبوع واحد، ويمكنك أن تعتبر أنني قد عاملتك بتساهل كبير.

انسلّ خارجاً محني الرأس كرجل كَسير، أما أنا فقد أطفأت الشمعة وعدت إلى غرفتي.

لمدة يومين بعد الحادثة كان برونتون حريصاً جداً على الانتباه إلى واجباته، ولم ألمّح أنا إلى ما حدث بل انتظرت ببعض الفضول لأرى كيف سيغطّي عاره. وفي صباح اليوم الثالث لم يظهر كعادته بعد الإفطار ليتلقّى تعليماتي عن سائر

اليوم، وفيما أنا أغادر حجرة الطعام قابلت الخادمة راشل هاولز (وقد أخبرتك أنها تعافت حديثاً من المرض)، وقد بدت شاحبة جداً وهزيلة لدرجة أنني اعترضت على رجوعها إلى العمل. قلت: يجب أن تكوني في السرير، عودي إلى العمل عندما تكون صحّتك أكمل.

نظرت إليّ بتعبير غريب جداً حتى إنني بدأت أشك في أن عقلها قد تضرّر، وقالت: أنا قوية بما فيه الكفاية يا سيد موسغريف.

أجبتها: سنرى ما يقوله الطبيب، أما الآن فيجب أن تتوقفي عن العمل، وأرسلي لي برونتون فأنا أريد رؤيته.

قالت: لقد ذهب كبير الخدم.

- ذهب؟! إلى أين؟

- لقد ذهب، لم يرَه أحد وهو ليس في غرفته. نعم، لقد ذهب، لقد ذهب.

سقطت إلى الخلف على الجدار وانتابتها نوبة تلو أخرى من الضحك، فأصابني الذعر من تلك النوبة الهستيرية المفاجئة وأسرعت أدقّ الجرس

لأستدعي النجدة. أخذوا الفتاة إلى غرفتها وهي ما تزال تصرخ وتبكي، وقمت بالاستعلام عن برونتون فتأكدت أنه قد اختفى، فسريره لم يكن قد استُعمل ولم يرَه أحد منذ دخل إلى غرفته في الليلة السابقة! وبالرغم من ذلك كان من الصعب معرفة كيف استطاع مغادرة المنزل لأن الأبواب والنوافذ جميعها كانت مغلقة في الصباح، كما كانت ملابسه وساعته ما تزال في غرفته، وكذلك أمواله، ولكن البدلة السوداء التي اعتاد أن يرتديها كانت مختفية! فإلى أين إذن ذهب كبير الخدم في أثناء الليل؟ وماذا يمكن أن يكون قد حدث له؟

فتّشنا كل مكان في المنزل بالطبع، ولكن بلا أثر، فالمنزل قديم كالمتاهة كما قلت لك، ولا سيما الجناح القديم، وهو الآن غير مأهول تقريباً، وقد فتّشنا كل غرفة وكل سرداب فيه دون اكتشاف أقلّ أثر للرجل المفقود! كان من غير المعقول بالنسبة إليّ أن يرحل الرجل ويترك كل متعلقاته وراءه، ولكن أين يمكن أن يكون؟ واتصلت بالشرطة ولكن بلا جدوى، فقد هطل المطر في الليلة السابقة فلم نستفِد شيئاً حين فحصنا المرج العشبي والممرّات المحيطة بالمنزل. كان هذا هو الحال حتى حدث

تطوّر آخر جذب انتباهنا بعيداً.

بقيت راشل هاولز مريضة جداً يومين كاملين، وكانت تقع أحياناً ضحية للهلوسة وتنتابها الهستيريا في أحيان أخرى، حتى إننا وظّفنا ممرضة للعناية بها في أثناء الليل. وفي الليلة الثالثة بعد اختفاء برونتون غفت الممرضة في مقعدها بعد أن اطمأنت إلى أن مريضتها تنام بهدوء، وعندما استيقظت في الصباح الباكر وجدت السرير خالياً والنافذة مفتوحة ولا أثر للمريضة!

فقاموا بإيقاظي على الفور، وبمساعدة اثنين من البوّابين بدأنا البحث عن الفتاة المفقودة على الفور، ولم يكن من الصعب معرفة وجهتها حيث استطعنا تتبّع آثارها بسهولة بدءاً من تحت نافذتها مروراً بالمرج العشبي حتى حافّة البحيرة، حيث اختفت آثارها بالقرب من الطريق المكسوّ بالحصى الذي يقود خارج الحدائق. البحيرة هناك عمقها ثمانية أقدام، ولك أن تتصور مشاعرنا حين رأينا آثار تلك الفتاة المجنونة المسكينة تنتهي عند حافتها.

أحضرنا شبكة ذات يد طويلة وبدأنا نجوس بها ماء البحيرة بحثاً عن جثة الفتاة المسكينة، ولكنا لم نجد أي أثر للجثّة، بل وجدنا أننا قد

سحبنا إلى السطح شيئاً غير متوقَّع بتاتاً؛ حقيبة من الكتان تحتوي على كتلة من المعدن الصدئ الذي تغيّر لونه، وعدّة قطع من الحصى أو الزجاج غير واضحة اللون! لم نجد في البحيرة سوى هذا الشيء الغريب، وبالرغم من أننا بذلنا كل جهد ممكن في البحث والتحقيق طوال يوم أمس إلا أننا لم نعرف شيئاً عن مصير أي من الاثنين، راشل هاولز أو ريتشارد برونتون، ووصلت تحقيقات الشرطة إلى طريق مسدود، ولهذا جئت إليك كملاذ أخير.

انتهى هولمز من رواية ما قاله صديقه موسغريف ثم تنهّد وقال لي: ولك أن تتخيل -يا واطسون- مقدار لهفتي وأنا أستمع إلى هذه السلسلة من الأحداث الغريبة وأسعى إلى تجميعها معاً والعثور على خيط واحد يمكن أن يربطها جميعاً.

اختفى كبير الخدم ثم اختفت الخادمة! وقد كانت الخادمة تحب كبير الخدم ولكن كان لديها سبب لتكرهه فيما بعد، فقد كانت من أصل ويلزي، أي أنها كانت تتميز بالعنف والعاطفة معاً، كما أنها انفعلت جداً بعد اختفائه مباشرة ورمت في البحيرة حقيبة تحتوي على أشياء مثيرة للفضول. كانت هذه هي كل الحقائق التي يجب أن نضعها في الاعتبار،

رغم أن أياً منها لا يشير إلى لبّ الموضوع، فما هي نقطة البداية لهذه السلسلة من الأحداث؟ في تلك النقطة فقط توجَد نهاية هذه الأحداث المتشابكة.

قلت: يجب أن أرى تلك الورقة يا سيد موسغريف، تلك التي ظنّ كبير خدمك أنها تستحقّ الدراسة حتى لو كان ذلك على حساب خسارته لعمله.

أجاب قائلاً: إن وصيتنا تلك أمر سخيف، ولكن يشفع لها أنها تحفة أثرية على الأقل. معي هنا نسخة من الأسئلة والأجوبة إذا أردت قراءتها.

سلّمني هذه الورقة الموجودة هنا نفسها يا واطسون، وهذه هي مجموعة الأسئلة والأجوبة التي يجب أن يطّلع عليها كل فرد من عائلة موسغريف حين يبلغ سنّ الرجولة. سأقرأ لك الأسئلة وأجوبتها كما هي:

- لمَن كان؟
- لمن مات.
- ولمن سيكون؟
- لمن سيأتي.
- أين كانت الشمس؟

- على شجرة البلّوط.
- أين كان الظل؟
- تحت شجرة الدّرْدار.
- كيف كانت خطواته؟
- عشر خطوات شمالاً، ثم خمس خطوات شرقاً، ثم خطوتين جنوباً، ثم خطوة بعدها خطوة إلى الغرب، ومثلها إلى الأسفل.
- بمَ نضحّي في سبيله؟
- بكل ما نملك.
- لماذا يجب علينا تسليمه؟
- لأنه أمانة.

علّق موسغريف قائلاً: الوثيقة الأصلية غير مؤرَّخة. إنها تعود إلى أواسط القرن السابع عشر حسبما تدل كتابتها، ولكنني أخشى أنها لن تساعدك في حل هذا اللغز على أية حال.

- سوف تعطينا لغزاً آخر على الأقل، واحداً أكثر تشويقاً من الأول، وقد يكون حل أحدهما من خلال حل الآخر. فلتسامحني -يا موسغريف- إذا قلت لك إن كبير خدمك كان رجلاً حاذقاً وكان يملك بصيرة نافذة تفوق بصيرة عشرة أجيال من سادته.

قال موسغريف: أنا لا أفهمك! هذه الورقة تبدو لي بغير قيمة عملية.

- ولكنها تبدو لي عمَلية جداً، وأحسب أن برونتون كانت له وجهة نظري نفسها، ومن المحتمَل أن يكون قد رآها قبل تلك الليلة التي قبضتَ عليه فيها.

- من الممكن جداً، فنحن لم نتكلف عناء إخفائها.

- أتصوّر أنه كان يأمل في إنعاش ذاكرته في تلك المناسبة الأخيرة، فقد كان معه -كما فهمت- خريطة ما أو مخطَّط يقوم بمقارنته بالمخطوط، ثم دفعه إلى جيبه عندما ظهرتَ أنت.

- هذا صحيح، ولكن ما علاقة ذلك بهذه الوصية الخاصة بعائلتنا؟ وماذا يعني هذا الكلام غير المفهوم؟!

قلت: لا أعتقد أننا سنواجه صعوبة في تحديد ذلك. سنستقل أول قطار إلى سَسِكْس -بعد إذنك- لندرس الموضوع في مكان الأحداث بعمق أكثر.

وصلنا إلى هورلستون في عصر اليوم نفسه. من

الممكن أن تكون قد رأيت صورة هذا المبنى القديم الشهير وقرأت أوصافه، ولذلك سأحصر وصفي له بقولي إنه يمتد في قسمين مستطيلين متعامدَين على شكل حرف الدال، على أن أحد القسمين أكثر استطالة من الآخر. القسم الطويل هو الجزء الجديد من المبنى، أما القصير فهو النواة القديمة التي انبثق منها القسم الجديد، وفي وسط هذا القسم القديم يوجَد باب منخفض ذو عتبة سميكة منقوش عليها تاريخ ١٦٠٧، ولكن الخبراء متفقون على أن المبنى أقدم من هذا التاريخ بكثير.

وقد حملت الجدرانُ السميكة والنوافذُ الصغيرة العائلةَ على بناء الجناح الجديد في القرن الأخير، ويُستخدَم الجناح القديم الآن كمخزن وقبو، ولكنه نادر الاستخدام، ويحيط بالمنزل متنزَّه جميل فيه أشجار قديمة جميلة، والبحيرة التي أشار إليها عميلي تقع على مقربة من الطريق المشجَّر وتبعد عن المبنى بنحو مئتي متر.

كنت مقتنعاً بشدّة -يا واطسون- بأن المسألة ليست فيها ثلاثة ألغاز غامضة بل واحد فقط، وأنني لو استطعت قراءة «وصية عائلة موسغريف» كما

ينبغي فسوف أمسك في يدي مفتاح الحل الذي سوف يقودني إلى الحقيقة المتعلقة بكبير الخدم برونتون وبالخادمة هاولز، فوجّهت كل طاقتي في هذا الاتجاه؛ فلماذا كان هذا الخادم متلهفاً جداً لدراسة هذه الوصية القديمة؟ من الواضح أن ذلك كان لأنه رأى فيها ما غاب عن كل الأجيال السابقة من مُلاّك القصر، وكان يتوقع منها بعض الفائدة.

فما هذا الشيء؟ وكيف أثّر في مصيره؟ كان من الواضح تماماً بعد قراءتي لوثيقة الوصية أن المقاييس لا بدّ أن تشير إلى مكان معيَّن وإليه يلمّح باقي الوثيقة، وأننا إذا استطعنا العثور على هذا المكان فسوف نكون في الاتجاه الصحيح لمعرفة السرّ الذي اعتقد أفراد عائلة موسغريف القدامى أن من الضروري أن يُصان بهذه الطريقة العجيبة.

كان أمامي دليلان لأبدأ بهما: شجرة البلّوط وشجرة الدَّرْدار، ولم تكن بي أي حاجة للتساؤل عن شجرة البلّوط، فأمام المنزل مباشرة في الناحية اليسرى من طريق العربات انتصبت شجرة بلّوط جليلة، لعلها من أكثر الأشجار التي رأيتها روعة. قلت ونحن نمرّ بها: أكانت تلك الشجرة موجودة عندما كُتبت الوصية؟

أجابني قائلاً: من المحتمَل أنها كانت موجودة منذ غزو الرومان، فلها جذع يزيد محيطه على سبعة أمتار.

سألت قائلاً: هل عندكم أية أشجار دَرْدار قديمة؟



Sydney Paget 1893

رسم سدني باجيت ١٨٩٣

- كانت لدينا واحدة قديمة جداً، ولكن صاعقة أصابتها منذ عشر سنوات فقطعنا ما بقي منها.

- هل تستطيع معرفة المكان التي كانت فيه؟

- نعم.

- ألا توجد هنا أشجار درادار أخرى؟

- ليست قديمة، ولكن يوجد الكثير من أشجار الزان.

- أودّ أن أرى أين كانت تلك الشجرة.

قادني عميلي في الحال إلى الأثر الموجود على المرج العشبي والذي يدلّ على المكان التي كانت فيه شجرة الدردار، وكان في منتصف الطريق تقريباً بين شجرة البلّوط والمنزل، وبدا أن تحقيقي في تقدُّم.

سألته قائلاً: هل أفترضُ أن من المستحيل معرفة كم كان ارتفاعها؟

- أستطيع إخبارك به على الفور؛ إنه عشرون متراً.

سألته بدهشة: كيف عرفت ذلك؟

- عندما كان معلّمي القديم يعطيني تمرينات في علم المثلّثات كان الدرس دائماً ما يأخذ شكل قياس الأطوال، ولذلك فقد قمت بحساب ارتفاع كل شجرة ومبنى في العزبة عندما كنت صبيّاً.

كانت تلك ضربة حظّ غير متوقَّعة، فالمعلومات كانت ترِدُني بسرعة أكبر مما كنت أتمنّى. سألته: أخبرني، هل سبق أن سألك كبير خدمك مثل هذا السؤال؟

نظر إليّ ريجنالد موسغريف بدهشة ثم أجابني قائلاً: الآن وقد ذكّرتني، نعم. لقد سألني برونتون عن ارتفاع الشجرة منذ بضعة شهور بسبب خلاف صغير بينه وبين السائس.

كانت تلك أخباراً ممتازة يا واطسون لأنها أظهرت لي أنني على الطريق الصحيح، فنظرت إلى الشمس التي كانت قد بدأت تميل إلى المغيب، وتَبيّن لي ببعض الحساب أنها ستكون عند أعلى فروع شجرة البلّوط القديمة في أقل من ساعة، وعندها سيتحقق أحد الشروط المذكورة في الوصية. لا بدّ أن يعني «ظلّ الدردار» الطرفَ الأبعد للظل، وإلا لكانوا قد اختاروا الجذع دليلاً، وعندها وجب

عليّ أن أجد المكان الذي كان أبعد طرف سيقع فيه ظلّ شجرة الدردار عندما تكون الشمس بالكاد أعلى شجرة البلّوط.

ذهبت مع موسغريف فأعددت وتداً ربطتُ به حبلاً طويلاً عقدت فيه عُقَداً عدة يفصل بين كل اثنتين منها متر، ثم أخذت وصلتين من صنارة صيد كان طولهما مجتمعتين مترين تماماً، ثم رجعت مع عميلي إلى حيث كانت شجرة الدردار حين كانت الشمس تلمس قمّة شجرة البلّوط، فقمت بتثبيت الصِّنَارة على طرفها ووضعت علامة لتوضّح اتجاه الظل، ثم قمت بقياسه فكان طوله ثلاثة أمتار.

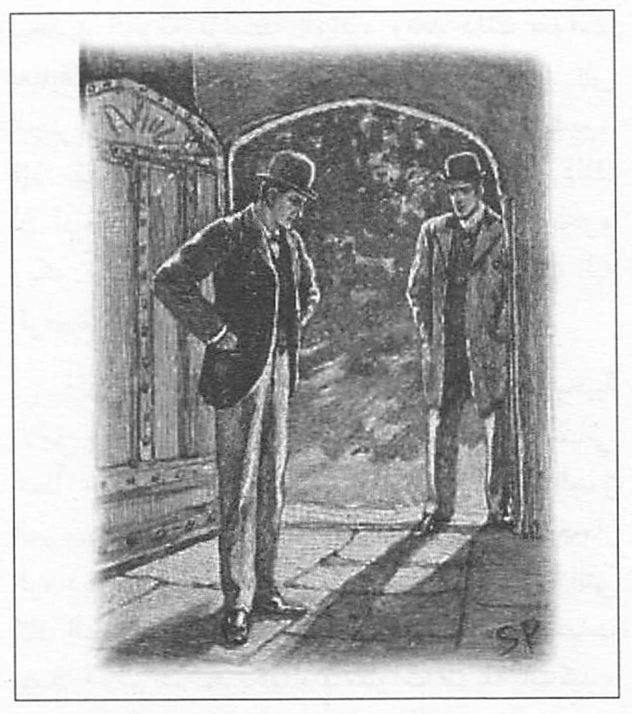
ومن ثَمّ بات إجراء الحساب بسيطاً، فلو كانت العصا ذات المترين تلقي ظلاً طوله ثلاثة أمتار فالشجرة التي يبلغ ارتفاعها عشرين متراً ستلقي ظلاً طوله ثلاثون متراً، كما أن اتجاه الظلّ سيكون هو نفسه بالطبع. قمت بقياس المسافة التي أوصلتني إلى جدار المنزل تقريباً، فدفعت بالوتد في المكان، ولك أن تتخيل اغتباطي -يا واطسون- حين وجدت على بعد بوصتين من وتدي انخفاضاً مخروطياً في الأرض، فعرفت أنها العلامة التي وضعها برونتون

في أثناء قيامه بالقياسات، وأيقنت بأنني ما زلت في أعقابه.

ومن نقطة البداية هذه واصلت التقدّم، فبدأت بتحديد الجهات الأربع مستعيناً ببوصلتي التي أضعها في جيبي، وبعد أن خطوت عشر خطوات وصلت إلى نقطة قريبة من جدار المنزل، فقمت مرة أخرى بتحديد الموقع بواسطة الوتد، وبعد ذلك تقدمت بعناية خمسَ خطوت إلى الشرق وخطوتين إلى الجنوب، فوجدت نفسي عند عتبة الباب القديم، فإذا تقدمت الآن خطوتين إلى الغرب فمعنى ذلك أن أدخل خطوتين في الممرّ المرصوف بالحجر، ويكون هذا هو المكان المقصود الذي أشارت إليه الوصية.

لم ينتَبْني قط مثل هذا الشعور الحادّ بخيبة الأمل يا واطسون، فللحظة بدا لي أن في حساباتي خطأ جذرياً. لقد أضاءت الشمس الغاربة الممرّ المرصوف بشكل كامل، واستطعت رؤية الأحجار الرمادية القديمة المتآكلة من طول الاستعمال التي كان الممر مرصوفاً بها، وقد كانت مثبَّتة بالإسمنت بصلابة ولم يتمّ تحريكها منذ سنوات طويلة بالتأكيد، مما يعني أن برونتون لم يعمل هنا!

دققت على الحجر ولكنه أصدر الصدى نفسه في كل مكان، ولم يكن هناك أثر لأي فتحات أو شقوق، ولكن -لحسن الحظ- بدأ موسغريف يفهم معنى ما أقوم به بحيث شاركني حماستي، فأخذ مخطوطته حتى يراجع حساباتي ثم صاح قائلاً: ثم إلى الأسفل... لقد تجاهلت إلى الأسفل.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

كنت قد ظننت أنها تعني أن علينا أن نحفر، ولكني فهمت عند ذلك على الفور أنني كنت مخطئاً، فصحت قائلاً: تحت هذا المكان سرداب إذن!

- أجل، وهو قديم قِدَم المنزل. من هنا إلى الأسفل ثم عبر هذا الباب.

نزلنا درجات حجرية متعرجة، وأشعل رفيقي ثقاباً ثم أضاء مصباحاً كبيراً كان موضوعاً فوق برميل في الزاوية، وعلى الفور بدا من الواضح أننا قد وصلنا إلى المكان الصحيح، وبدا أننا لم نكن وحدَنا مَن قصد ذلك المكان حديثاً.

كان القبو يُستخدَم في تخزين الخشب، ولكن كان من الواضح أن قطع الخشب كانت مبعثَرة على الأرض ثم صُفَّت على الجانبَين بطريقة تسمح بوجود مساحة خالية في الوسط، وفي تلك المساحة رأينا بلاطة ثقيلة لها يد حديدية صدئة في وسطها وقد رُبِطت بها كوفية سميكة.

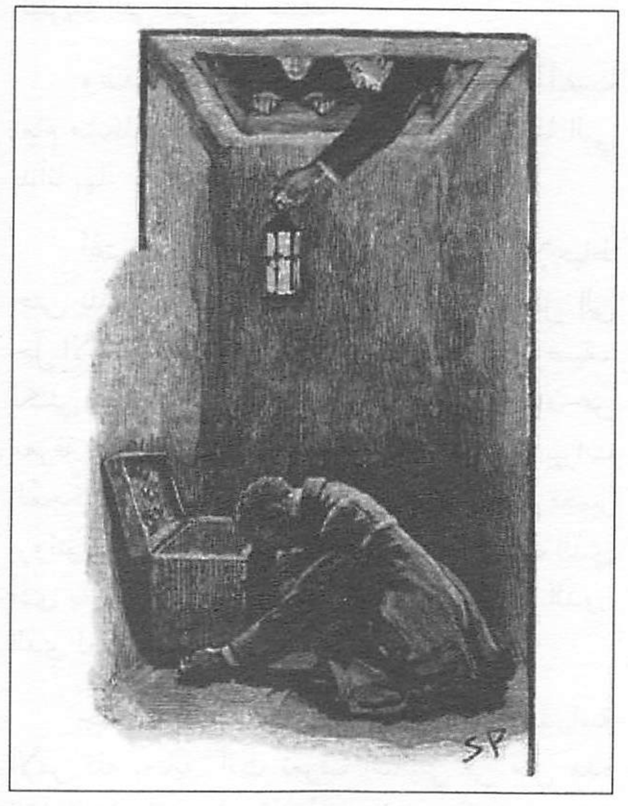
صاح عميلي: يا إلهي، إنها كوفية برونتون! لقد رأيته يرتديها، أنا متأكد من ذلك، ماذا كان هذا الشرير يفعل هنا؟

بناء على اقتراحي تمّ استدعاء شرطيَّين من شرطة المقاطعة ليكونا حاضرَين، وسعينا عندها لنرفع الحجر مستخدمين الكوفية، ولكنني لم أستطع تحريكها إلا قليلاً حتى ساعدني أحد رجال الشرطة أخيراً في حملها إلى أحد الجوانب، فظهرت حفرة مظلمة حدقنا إليها كلنا، ثم جثا موسغريف على أحد الجوانب وأنزل المصباح إلى الفتحة.

ظهرت أمامنا غرفة صغيرة عمقها نحو مترين وأضلاعها مربّعة طول كل منها نحو متر أو أكثر قليلاً، وفي أحد الجوانب رأينا صندوقاً من الخشب المغلف بالنحاس، وقد كان الغطاء مرفوعاً إلى الأعلى ومفتاح قديم الطراز غريب الشكل يظهر من القفل، وقد غطّته من الخارج طبقة سميكة من التراب، وكان خشب الصندوق قد تآكل بفعل الرطوبة والديدان ونمت الفطور في داخله، كما تبعثرت في قاعه عدّة أقراص معدنية هي عملة نقدية قديمة كما يبدو، ولم يكن يحتوي على أي شيء آخر.

لكننا لم نفكّر في الصندوق في تلك اللحظة، فقد جمدت عيوننا على ما كان يجثم بجواره؛ كان جسمَ إنسان يرتدي بدلة سوداء ويجثم على فخذيه

وقد استندت جبهته على حافّة الصندوق وامتدّ ذراعاه على جانبَيه! وقد أدّى هذا الوضع إلى سحب كل الدم الراكد إلى وجهه، ولم يكن أحدٌ ليتعرف إلى تلك الملامح التي شوّهها لون الدم المحتقن،



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

ولكن طوله وملابسه وشعره كانت جميعاً كافية لتُظهِر لعميلي -حين سحبنا الجثّة إلى أعلى- أنها جثة كبير الخدم المختفي. كان ميتاً منذ بضعة أيام، ولكن لم يظهر عليه أي جرح أو علامة تدل على الطريقة التي لقي بها حتفه.

وعندما حملوا جثمانه من القبو وجدنا أنفسنا أمام مشكلة تكاد تكون بنفس صعوبة المشكلة التي بدأنا بها.

أعترف يا واطسون أنني كنت أشعر بالإحباط حتى تلك اللحظة، فقد ظننت أنني سأتوصل إلى حل الأمر عندما أجد المكان المشار إليه في الوصية، لكنني وصلت إلى هناك وما زلت أبعدَ ما أكون عن معرفة الذي كانت العائلة تخفيه بكل تلك التدبيرات المُحكَمة! وبالرغم من حقيقة أنني أوضحت مصير برونتون إلا أنني كنت بحاجة إلى معرفة السبب الذي أدّى به إلى ذلك المصير، وأيضاً إلى معرفة الدور الذي لعبته المرأة المختفية في هذه اللعبة.

جلست على برميل في الركن وقمت بدراسة الأمر كله بعناية. أنت تعرف أساليبي في مثل هذه القضايا يا واطسون، فأنا أضع نفسي مكان الرجل،

وبعد تحديد مدى ذكائه أولاً حاولت تخيُّل كيف كنت سأتصرف في الظروف نفسها، وفي هذه القضية سهّل الأمرَ أن برونتون كان يمتلك ذكاء من الدرجة الأولى، ومن ثَم فقد كان من غير الضروري السماح بأي نظريات شخصية في موضوع محسوم كما يقول العلماء.

لقد عرف برونتون أن شيئاً ثميناً تمّ إخفاؤه، ونجح في الاهتداء إلى موضعه، لكنه وجد أن الحجر الذي يغطيه ثقيل جداً لدرجة أن رجلاً واحداً لن يستطيع تحريكه دون مساعدة، فماذا سيفعل بعد ذلك؟ لم يكن قادراً على طلب المساعدة من الخارج، فحتى لو كان يعرف شخصاً يستطيع أن يأتمنه فلن يستطيع الاستعانة به دون فتح الأبواب وتعريض نفسه إلى خطر كبير باكتشاف أمره، ولذلك كان من الأفضل أن يحصل على المساعدة من داخل المنزل، ولكن ممّن يمكنه أن يطلب المساعدة؟

لقد كانت تلك الفتاة مخلصة له في الماضي قبل أن يتنكر لها وينصرف عنها إلى غيرها، والرجال لا يدركون أنهم يفقدون حب المرأة إلى الأبد إذا ما عاملوها بسوء، لذلك فقد ظنّ أنه إذا أظهر بعض الاهتمام بها فسوف تكون هي مصدر العون

المطلوب. وهكذا فقد عقد صلحاً مع الفتاة هاولز حتى يورّطها معه لتكون شريكته، وبعد ذلك يأتيان معاً إلى القبو خلال الليل حيث تكفي قوّتهما مجتمعة لرفع الحجر.

حتى تلك اللحظة استطعت تتبّعه كما لو كنت قد رأيتهما بالفعل، ولكن لا بد أن رفع هذا الحجر كان عملاً شاقاً، لا سيما وقد كان أحد الاثنين امرأة، فقد وجدت أنا وشرطي قوي أنه ليس بالأمر السهل، فما الذي يمكن أن يفعلاه ليساعدهما؟ من المحتمَل أنه الشيء الذي كان يجب عليّ فعله، فوقفت وفحصت ألواح الخشب المختلفة التي كانت مبعثَرة على الأرض بعناية، وقد عثرت على ما توقّعته على الفور: قطعة واحدة من الخشب طولها متر عليها علامة غائرة واضحة على أحد أطرافها، وعدّة ألواح أخرى عليها علامات تسطيح على الجوانب كما لو أنها قد تعرضت إلى ضغط بشيء ثقيل. فمن الواضح أنهما حين رفعا الحجر إلى أعلى قاما بدفع قطع من الخشب في الشقّ حتى صارت الفتحة أخيراً واسعة بما يكفي لتسمح لهما بالزحف من خلالها، ثم وضعا قطعة من الخشب بالطول ليحتفظا بها مفتوحة، وبالطبع سيؤدّي ذلك إلى انبعاج القطعة

عند طرفها السفلي حيث سيضغط ثقل الحجر عليها إلى أسفل على حافّة تلك الكتلة الإسمنتية الأخرى. إلى هنا أنا على الطريق الصحيح.

والآن كيف سأواصل إعادة تشكيل أحداث تلك الليلة الدرامية؟ من الواضح أن الحفرة لا تتّسع إلا لشخص واحد فقط، وكان هذا الشخص هو برونتون، فلا بد أن الفتاة قد انتظرته في الأعلى، وقام برونتون بفتح الصندوق، ثم أفترضُ أنه قد أعطاها المحتويات لأننا لم نجدها، وبعد ذلك... ماذا حدث بعد ذلك؟

ماذا يمكن أن يحدث إذا اندلعت النار فجأة في قلب تلك الفتاة العاطفية العنيفة عندما ترى أن الرجل الذي ظلمها (وربما كان ظلمه لها أكثر مما نتخيل) وقد وقع في قبضتها؟ هل يمكن أن تكون قطعة الخشب قد انزلقت فأغلق الحجر على برونتون وهو في الحفرة فأصبحت قبراً؟ هل ذنبها الوحيد هو الصمت أمام ما حدث له؟ أم هل دفعت ضربةٌ مفاجئة من يدها الخشبةَ الداعمة لتسقط الكتلة الإسمنتية وتعود إلى مكانها؟ فليكن الأمر ما يكون، فقد تخيّلتُ امرأة لا تزال تقبض على كنزها وتصعد الدرجات المتعرجة بجنون، ترنّ في أذنيها

الصرخات المكتومة خلفها والطَّرْقات المحمومة على الحجر الذي يخنق حبيبها الخائن حتى الموت.

كان هذا هو سرّ شحوب وجهها واضطراب أعصابها ورنين ضحكاتها الهستيرية في صباح اليوم



رسم و هـ هايد ١٨٩٣ W. H. Hyde 1893

التالي، ولكن ماذا كان في الصندوق؟ وماذا فعلت به؟ بالطبع لا بدّ أنه تلك القطعة المعدنية القديمة والأحجار التي انتشلها عميلي من البحيرة، فقد ألقت بها في البحيرة لتتخلص من آخر دليل على جريمتها.

جلست بلا حراك لمدة عشرين دقيقة أدرس الأمر من كل جوانبه، في حين كان موسغريف لا يزال واقفاً ووجهه شاحب جداً وهو يحرّك المصباح ويحدق إلى الحفرة. ثم قال وهو يحمل القليل من القطع المعدنية التي كانت في الصندوق: إنها عملات من عهد تشارلز الأول. أترى؟ لقد كنا مُحقّين في تقدير تاريخ وثيقة وصية العائلة.

صحت فجأة وقد بدأت أفهم أول سطرين في الوصية: قد نجد شيئاً آخر من عهد تشارلز الأول. دعني أنظر إلى محتويات الكيس الذي انتشلتَه من البحيرة.

توجهنا إلى مكتبه حيث وضع الأشياء القديمة أمامي، وحين رأيتها أدركت لماذا اعتبرها ذات أهمية ضئيلة، فلون المعدن كاد يكون أسود والحجارة كالحة. فركتُ بكمّي واحداً من الأحجار فتوهّجَ

في قبضة يدي، أمّا الشيء المعدني فكان في الأصل على شكل دائرة مزدوجة، ولكنه تقوَّس والتوى على مرّ الزمان ففقد شكله الأصلي.

قلت: يجب أن تضع في اعتبارك أن جماعة الملك قد استمروا على رأس السلطة في إنكلترا بعد وفاة الملك نفسه، ومن المحتمَل أنهم عندما هربوا أخيراً تركوا وراءهم معظم ممتلكاتهم القيّمة مدفونةً وفي نيّتهم العودة لاستعادتها عندما يسود السلام.

قال صديقي: كان جدّي الأكبر السير رالف موسغريف فارساً بارزاً، وكان اليد اليمنى للملك تشارلز الثاني في أثناء حكمه.

أجبته قائلاً: حقاً؟ حسناً، أعتقد أن هذه المعلومة توفّر لي الحلقة الأخيرة التي نسعى إلى الوصول إليها. يجب عليّ أن أهنّئك لعثورك على هذا الكنز، بالرغم من الظروف المأساوية التي وجدته فيها. إن لهذا الأثر قيمة عينية عظيمة، لكن قيمته كأثر تاريخي أخطر شأناً.

شهق بدهشة وقال: ما هو إذن؟

- إنه التاج القديم لملوك إنكلترا.

- التاج!

- بالضبط، فكّر فيما تقوله الوصية وكيف تنتقل من فكرة إلى فكرة: «لِمَن كان؟»، «لِمَن مات»؛ فقد كان ذلك بعد إعدام الملك تشارلز الأول. ثم بعد ذلك «لمَن سيأتي»، والمقصود هنا تشارلز الثاني الذي كانت عودته متوقَّعة؛ ولذلك لا أشكّ في اعتقادي أن هذا الإكليل المهترئ الذي لا شكل له قد طوّق ذات يوم جباه هؤلاء الملوك من عائلة ستيوارت.

- آه! وكيف انتهى به الأمر إلى البحيرة؟

بعد ذلك وصفت له سلسلة الافتراضات الطويلة والأدلّةَ التي بنيتها عليها، حتى غاب الشفق وبدأ القمر يتلألأ في السماء ولمّا أفرغ من روايتي.

أعاد موسغريف الإكليل إلى الحقيبة الكتّانية ثم سألني قائلاً: كيف إذن لم يحصل تشارلز الثاني على تاجه عندما عاد؟

- آه، أنت تضع يدك على النقطة الوحيدة التي لن نستطيع توضيحها أبداً. من المحتمَل أن الشخص الذي كان يحمل السرّ في عائلة موسغريف قد مات

في تلك الفترة وترك هذا الدليل لخلفائه لكنه سها عن توضيح معناه، ومنذ ذلك اليوم إلى وقتنا هذا تمّ تسليمه من جيل إلى جيل حتى وصل أخيراً إلى رجل استطاع اكتشاف السرّ ودفع حياته ثمناً لمغامرته.

هذه هي -يا عزيزي واطسون- قصة وصية عائلة موسغريف. أما التاج فما زال هناك في قصر هورلستون، بالرغم من بعض المشكلات القانونية ومبلغ كبير من المال يتوجب دفعه قبل أن يُسمَح لآل موسغريف بالاحتفاظ به، وأنا متأكد أنك لو ذكرت اسمي فسوف يعرضونه عليك بكل سرور. أمّا المرأة فلم يسمع أحد عنها شيئاً، ومن المحتمَل أن تكون قد هربت من إنكلترا -حاملة معها ذكرى جريمتها- إلى بلد بعيد.



-تمّت-